فعلاء

للأستاذ « السهمي »

أشكر لسيدي الكاتب الألمعي والأستاذ الباحث المتفنن السيد على المهاري تشريفه إياي بما أمرني به وإحسانه إلي بالباسي من عطفه على وقوله فيّ نوباً قد ضمت فيه ولم أبن تم أقول :

لا حيرة بعد اليوم (إن شاء الله تعالى) ولا قلق ، ولا بأس على (فعلاء) ولا على شقيقها (أفعل) ولا على جمعهما ، فهما كما هما ، وجمعهما كما أعربت العربية ونطق (الكتاب) وطريقة (الكتاب) هي المثلى ، « وكلمة الله هي العليا » « ولله المثل الأعلى » وكما أملى (الخليل) على خريجه أو بصّره ، فقيد (أبو بشر) ذلك بالكتاب في (الكتاب)[1] وكما قال (أبو العباس) في (كامله) .

قال (عمرو) في (البحر) : « وأما أفعل إذا كان صفة فإنه يكسر على فعل ... وذلك أحمر وحمر وأخضر وخضر وأبيض وبيض وأسود وسود ... والمؤنث من هذا يجمع على فعل وذلك حمراء وحمر وصفراء وصفر...[2] » .

وقال (محمد بن يزيد) في (الكامل) الذي لم يتنقصه الدهر . وسأروي قوله بكماله على طوله حيث[3] هو الحجة التي تشبث بها مانع (فعلاء) وليس له فيه أقل متشبث ، قال :

« قال نبهان بن عَكّ العبشمي :

يُقر بعيني أن أرى مَن مكانه ذُرا عقدات الأبرق المتقاود[4]

وأن أرد الماء الذي شربتَ به سليمى وقد مل السري كل واجد[5]

وألصق أحشائي ببرد ترابه وإن كان مخلوطاً بسم الأساود

... بسم الأساود : يريد أسود سالخ[1] ، وجمعه على أساود لأنه يجري مجرى الأسماء ، وما كان من باب أفعل اسماً فجمعه على أفاعل نحو أفكل[2] وأفاكل ، والأكبر والأكابر وكذلك كل ما سميت به رجلا تقول : أحمد وأحامد وأسلم وأسالم . فإن كان نعتاً فجمعه على فعل نحو أحمر وحمر وأصفر وصفر ولكن أسود إذا عنيت به الحية وأدهم إذا عنيت به القيد وأبطح إذا عنيت المكان المنبطح وأبرق إذا عنيت به المكان مضارعة للأسماء لأنها تدل على ذات الشيء وإن كانت في الأصل نعتاً ، تقول في جمعها الأباطح والأبارق والأداهم والأساود ، فإن أردت نعتاً محضاً يتبع المنعوت قلت مررت بثياب سود وبخيل دهم ، وكل ما أشبه هذا فهذا مجراه » .

قوله (إن أردت نعتاً محضاً) يقصد به مثل أسود وسوداء وأدهم ودهماء وأبيض وبيضاء وأحمر وحمراء[3] لا مثل الأسود للحية والأدهم للقيد والأبطح والأبرق المضارعة للأسماء أو التي أصبحت تعد في الأسماء « تعينت لها الاسمية إذ فقدت الوصفية »

فهذه ليست بنعت محض حتى يسوغ لها أن تجمع على (فعل) إن هذا الجمع للنعت المحض الذي لا رائحة للاسم تشم فيه .. وأما التي نقلت من الوصفية إلى الاسمية فجمعها (أفاعل) لأنها ليست من النعت المحض ولا ينظر إلى أصلها وإن كان أصلها نعتاً وإنما يلتفت إلى ما قد حصل ...

وقول المبرد هذا هو مثل قول سيبويه ، وهو القاعدة في هذا الجمع ولا منع فيه لوصف مجموع بمفرد ، ولا وجوب وصف مجموع بمجمع ولا جوازه ، وما أظن المبرد زاد شيئاً في (المقتضب)[4] على ما قاله سيبويه ونقله هو في الكامل .

هذه هي قصة القضية في فعلاء وجمعها فعل للمولد — إذا ثبت عنده أن العرب لم يصفوا الجمع بذلك المفرد — أن يقيس وصف جمع على وصف جمع ، وكم قاس في اللفظ والتركيب وكم

(١) (الكتاب) معناه كما تفهم اليوم وكما تقول الفرنج (Livre) مولد

(٢) وقال : وأما الأصغر والأكبر فإنه يكسر على أفاعل ، ألا ترى أنك لا تصف به كما تصف بأحمر ونحوه ... فلما لم يتمكن هنا في الصفة كتمكن أحمر أجري مجرى أجدل وأفكل كما قالوا : الأباطح والأساود حيث استعمل استعمال الأسماء.

(٣) حيث هنا معناها مولد .

(٤) (الأبرق) حجارة يخلطها رمل وطين (المتقاود) النقاد المستقيم (المبرد) .

(٥) واجد : من الوجد وهو الحب الشديد (الرضي) وروى كل واحد وهو المنفرد في السير المتوحد به ، وروى كل واخد وهو من الوخد

(١) سالخ . نعت به الأسود لأنه يسلخ جلده كل عام ولا توصف به أنثاه (الرضي) .

(٢) أفكل : إسم لرعدة من برد أو خوف ولا فعل له (الرضي).

(٣) تذكر في حمراء بما في النهاية : وفي حديث علي قيل له غلبتنا عليك هذه الحمراء يعنون العجم والروم ، والعرب تسمي الموالي الحمراء

(٤) قال الزنخشري : المقتضب لأبي العباس المبرد ، وقد ذره من كتاب بعد (الكتاب) قلت : « وهو في دار الكتب المصرية عمرها الله « ستة مجلدات مأخوذة بالتصوير الشمسي ».

ولد ، وثلاثة أرباع اللغة مولد ، ولا سيما[١] إذا لم تجىء نصوص أئمة تمنع .

ورأينا الجاحظ فى (الحيوان)[٢] (ج ٢ ص ٢١٢) والمسعودى فى (المـــروج)[٣] — ج ١ ص ٣٥ — والزمخشرى فى (الكشاف) — ج ٢ ص ٣٨٣ — والتبريزى فى (شرح الحماسة) فى الطبعتين — ج ٤ ص ١٢٠ ج ٤ ص ٢٤٤ — والصاحب فى إحدى رسائله فى (إرشاد الأديب) والمعرى فى جريدة كتبه فى (الارشاد) وفى (رسائله) وفى (نهاية الأرب) وابن سيده فى (المخصص) وابن طولون فى (اللمعات البرقية فى النكت التاريخية)[٤] — ص ٦٦ — رأينا هؤلاء القوم يصفون وصفهم ، فاستدل المستدل على التجويز ، وقيل : هؤلاء جلهم أئمة ، والأئمة يُتبعون . وإذا حرف نسخ أو طبع أقوالهم فهل حرفت كلها جمع أو جمعاء ؟

أنا استبعد كثيراً التحريف فى كلام ابن سيده وفى (أيادى بيضاء) إن (المخصص) محقق ، وضبط الشنقيطى إياه محكم ، وعبارة المعرى رواها القفطى فى (إنباه الرواة على أنباه النحاة)[٥] وقد طير همزة بيضاء ناسخ عصرى لكتاب (الإنصاف والتحرى) فجاءت (أيادى بيضا) فهل كان هذا الناسخ ممن يتقززون من الهمز فقصر أو كان مستعجلا أو طوعت له نفسه أن يصحح كلام أبى العلاء ؟.. و (الزهراء والجزاء والأرزاء) هن من مظاهرات (بيضاء) وما جلب تينك السجعتين فى اعتقادى إلا هى .

وأوقن كل الإيقان أن أبا العلاء وصاحب المخصص لم يقولا (زهراء) و (وخضراء غبراء) إكراماً للجوار جوار (مثل) و (مضيلة) فما كان هذا الإمامان يعرفان هذه (الفتوى اللغوية العصرية) هذا الكلام المفتلت ، وان يعثر على مثله عاثر عند أحد من المتقدمين ولا عند أحد من المتأخرين ، أنه كلام لفته صاحبه لفتاً ، والعلم ليس بشعوذة[١] أو مخرقة[٢] .

من مشاهير[٣] العصريين الذين وصفوا الجمع بفعلاء المفردة الأب أنستاس مارى الكرملى فى مجلته (لغة العرب) كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى جواد فى مقالة فى (مجلة المجمع العلمى العربى) الغراء .

والشيخ إبراهيم اليازجى فى مجلته الضياء (ص ١ ج ٣) قال : « .. ونوده أن يكون فداء عن أياديهم البيضاء وأن لاتعدم الآداب نفحات مكارمهم الفيحاء » .

والأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى إحدى مقالاته فى (الرسالة) الغراء قال : « ... فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم تجعل هدير البحر كأنه تسبيح ، وترد الأمواج نقية بيضاء كأنها عمائم العلماء » .

وقد كتب الأستاذ الرافعى هذه التعليقة على (بيضاء) :

« يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ وأن الصواب أن يقال (بيض) ولسنا من هذا الرأى وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه لغفلتهم عن السر فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد ومرة فى الوصف بالجمع » .

يظهر أن المرحوم الرافعى لم يتأمل قول المبرد فى الكامل ملياً فجار على هذا المسكين البرىء وغلطه وجهله . وكلام (أبى العباس) هو ما رويته آنفاً وما كان هذا الإمام فيه إلا موضحاً كيفية[٤] جمع مكسر ومقرراً قاعدته ، ولم يغلط فى توضيحه وتقريره ، ولن يجسر ناح أن يخالفه فيما قال .

لقد كان (أبو السامى) يستعجل فى بعض الأوقات فى رده ويكربل ويكرمل فى نقده ...

إن أول من نبه على ما توهمه خطأ هو الأستاذ (كرنكو) — الربانى الجرمانى (رب ذلك الجمع) وهو الذى خطأ الأب أنستاس ونشر التغليط فى مجلة (لغة العرب) ثم كانت تلك الفتنة فى بلاد العرب ...

السرحى

(١) هل قول الحريرى (لاسيما وقد أغدف جنح الظلام) تركيب مولد ؟

(٢) حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

(٣) ضبطه وعلق عليه الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٤) فى (مكتبة القدسى فى القاهرة) .

(٥) نسخة مصورة بدار الكتب المصرية نقلت منها سيرة الشيخ فى كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء)

(١) فى اللسان والتاج : قال الليث : الشعوذة والشعوذى مستعمل ، وليس من كلام أهل البادية . وفى الأساس : فلان شعوذى ومشعوذ ومشعبذ ... وتقول : رأيته يعوذ ويشعوذ

(٢) فى الصحاح : وأما المخرقة فكلمة مولدة . وفى التبريزية الحريرية : ... أكذب من أبى ثمامة حين مخرق بالعمامة .

(٣) جمع مولد .

(٤) الكيفية كلمة مولدة .